شمولية الرؤيا الحضارية وفرضية الجهاد

* * * * * * * * * * * * * *



من كتاب/ مـقـالات بين منهجيـن

بقلم الشيخ..أبو قتادة الفلسطيني..حفظه الله

* *

حين نتحدّث عن حركات الجهاد في العالم الإسلامي، فإنّنا نقصد تلك التّجمّعات والتّنظيمات التي قامت من أجل إسقاط الأنظمة الطّاغوتية الكافرة في بلاد الردّة، وإحياء الحكومة الإسلاميّة التي تقوم على تجميع الأمّة تحت راية الخلافة الإسلامية، وبعيداً مؤقّتاً عن الحديث عن التّوصيف الشرعيّ للواقع الذي تعيشه دار الرّدة التي قامت على أنقاض دولة الخلافة، فإنّنا نبدأ ببيان قرب بعض الجماعات من هذه الجماعات الجهاديّة، حيث نرى تجمّعات وتنظيمات لا نستطيع أن ندخلها في الحديث عن حركة الجهاد بهذا المفهوم الذي تقدّم، لأنّ هذه التّجمّعات يغلب عليها طابع عمل الحسبة، فهي تزاول أعمال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في داخل المجتمعات، وليس لها من تطلّع واضح كما يظهر من أدبيّات الجماعات في إقامة دولة الخلافة، وطبيعة عمل الحسبة يقوم على الاهتمام بما هو داخل المجتمعات من معاصي، فهذا رجل يشرب الخمر، وهذه امرأة سافرة، وصور أخرى كثرت في مجتمعاتنا، فتقوم هذه الجماعات بواجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بمرتبته المتقدّمة من التّغيير باليد، وعلى ضوء هذا العمل الشّرعي تسارع الدولة المرتدّة في ملاحقة هذه التّجمّعات، وإقامة القوانين الوضعيّة عليهم، وحينئذٍ قد يتأزّم الصّراع بين الدّولة وهذا التّجمّع، فتبدو للنّاظر من بعيد

كصورة تغيير شامل لهذه الدّولة، لكن قد يظهر عدم الوضوح عند هذه الجماعة حين تبدأ عمليّة شدّ الحبل بينهم وبين الدّولة، فقد يعلن بعض قيادات هذه الجماعات بأنّه لو فتحت لهم الدّولة العمل داخل المساجد، أو سمحت لهم بالعمل الدّعويّ فقد يخفّفوا الوطأة في صراعهم مع هذه الدّولة، وللأسف كثيراً جدّاً ما نرى بعض المناظرات بين ممثل الدولة المرتدّة وبين هذه الجماعات تقوم على الخلاف في مشروعيّة التّغيير باليد لآحاد الرّعيّة، وهذا الأمر يكون خطاباً وخلافاً بين دولة مسلمة ورعاياها من المسلمين، وليس بين دولة كافرة مرتدّة وبين جماعة تسعى لقلبها وتغييرها، ولكنّ هذا لا يمنع هذه الحركات من التّقدّم إلى موضع أماميّ في هذا الصّراع، وهو الموضوع المطلوب وذلك بتبيّن حقيقة الصّراع بين الحركة الجهاديّة التي تقدّم وصفها وبين هذه الدّولة المرتدّة، وهذا التّقدّم يتمّ عادة باحتكاكها خلال مسيرتها بتجمّعات جهاديّة واضحة المعالم أو بسبب ظروف خاصّة فتقترب هذه الجماعات من مفهوم حركة الجهاد الصّحيح، وممّا ينبغي التّأكيد عليه وهو مهمّ جدّاً الاهتمام به وعدم نسيانه أو تغافله وهو أنّ حركات الجهاد ليست هي التي تحمل السّلاح أو هي التي تؤمن بحمل السّلاح فقط فهذا خطأ منتشر بين كثير من الشّباب الجهادي لأنّ حركة الجهاد هي الحركة الشّموليّة الحضاريّة، المنبثقة من مفهوم التّوحيد الصّحيح بشقّيه توحيد العبادة وتوحيد الاتّباع، وهي التي تحمل بعداً تاريخيّاً في فهمها بكبوات أمّتنا الفكريّة والنّفسيّة وتملك الرؤية المستقبليّة لعالم يسوده الإسلام بشمول عطائه، الظّاهريّ والباطني، وباستغراق أحكامه الكبيرة والعامّة ولذلك ليس من المقبول أبداً من حركات الجهاد (الأمل) أن لا تهتمّ بجانب التّوحيد من جميع جوانبه لأنّنا

نرى حركات جهاديّة نشأت في واقع فيه شرك النّسك من عبادة القبور والقباب، ولم يظهر شيء من أدبيّات هذه الجماعة يشير إلى هذا الشّرك من قريب أو بعيد، وكأنّ هذا الأمر لا يعنيهم، كذلك تكون هذه الجماعات قد نشأت في مجتمعات غلب عليها التّعصّب المذهبيّ المقيت للمذاهب والطّرق، فلا ترفع لهذه الأمور رأساً، وكأنّ هذه الحركات هي حركات سياسيّة لكنّها اتّخذت حمل السّلاح وسيلة من وسائل العمل السّياسيّ.

إنّ هذه الطّروحات في معالجة الإرث التّاريخيّ السّيّء لأمّتنا ومجتمعنا ضروريّة جداً لحركات الجهاد، لأنّها تصبغ هذه الحركات بالبعد الشّرعيّ الذي يقرّبها من جيل الصّحابة رضي الله عنه.

إنّ الحركة الجهاديّة الأمل هي حركة سلفيّة التّصوّر والرّؤى، سلفيّة المنهج والطّريق، بريئة كلّ البراءة من الإرث المنحرف في فكر الأشاعرة، والماترديّة، سليمة كلّ السّلامة من آثار المنهج الصّوفي الضّال، لا تنتسب إلى أيّ مذهب وطريق إلاّ طريق الكتاب و السّنّة، بصيرة بحال أهل زمانها، تصبغ أعمالها بالبعد التّعبّديّ لحركة الصّحابيّ الأول في الأرض، إذا عرفنا هذا تبيّن لنا أنّ حركات الجهاد في العالم الإسلامي لم تصل إلى الأمل المنشود ولكنّها إن شاء الله تشدّ الخطى نحوه، وقد رأينا إذا طال الزّمن في مسيرة الحركات أن تتبيّن المسالب والأخطاء أكثر، فالحركة الجهاديّة في سوريّا كانت مليئة بمثالب وأخطاء الإخوان المسلمين وقد حاول قادتها - رحمهم الله - أن يصحّحوا المسيرة خلال الأزمة فلم يدركهم الوقت، بل إنّهم وقعوا في حفرة الارتباط بجماعة الإخوان المسلمين، فلم يخرجوا عن شعارهم بل تسمّوا باسم الطّليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، وبرّروا ذلك أنّ هذا للوفاء للرّجال الذين أناروا لهم الطّريق

بدمائهم أمثال سيّد قطب وعبد القادر عودة ومحمّد فرغلي وغيرهم، لكن ليس هذا الأمر ممّا يمكن أن يقع لولا عدم الوضوح بهذه الأمور التي سبق ذكرها من شروط حركة الجهاد الأمل.
نعم إنّ الحركة الجهاديّة تتنامى بفكرها ومنهجها (فقد كانت بعض الجماعات تطلق على العمل السّريّ أنّه بدعة معاصرة)، وتكتسب كلّ يوم مواقع جديدة، وخلال الطّريق سيتساقط الذين يصرّون على الوقوف بدون تقدّم، كما توقّفت الحركات الإسلاميّة عموماً في التّقدّم نحو الأفضل، ومن الأمثلة الصّريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى هو النّتيجة الجيّدة، والموقع المتقدّم بعد حسن البنّا، لكنّ الجماعة بقادتها الجدد كانت أصغر من هذا الموقع، فأبت التّنامي معه، ووقفت حيث هي، والحركة السّلفيّة كذلك، فها هو سفر الحوالي ومعه سلمان العودة يمثّلان الموقع المتقدّم لحركة الإحياء في الجزيرة العربيّة، ولكنّ الكثير من مشايخ حركة الإحياء الأولى يأبون الإقدام الصّحيح، وتشدّهم مواقعهم الأولى، وممّا يؤسف له أنّ القبول لهذا الإقدام يكون في أغلبه من خارج هذه الحركات، مع استجابة الكثيرين الّذين لا يكونون حول المركز في هذه الجماعات، وحركات التّصادم مع الطّواغيت سيقع فيها ما وقع في هذه الحركات، فسيصبح دور هؤلاء القدماء هو البحث عن الأدلّة في تمرير قول المتقدّمين، وهي نفس الحفرة التي وقعت فيها أمّتنا من اتباع الأئمّة، بالقيام بدور الشّارح لكلام الإمام، ثمّ اختصار الشّرح، ثمّ التّعليق والتّهميش وهكذا تبقى الدائرة حول مركز الشّيخ، أو حول دائرة المؤسّس.
وبقي أمر آخر بالنّسبة لهذه الحركات (الجهاديّة) ، وهو أنّ هذه الحركات كما تعتمد على شموليّة الموضوع والنّظرة، فينبغي لها

وجوباً أن تنظر إلى شموليّة المكان واتّساعه، وأقصد بهذا أنّه قد تفتح أماكن جديدة للجهاد في غير بلدها، وهذا المكان إمّا أن يكون وصفه مكان إعداد فقط، أو يكون الأمل فيه بتحقيق الهدف المرجوّ أكبر من غيره، حينئذٍ على الحركة الجهاديّة أن تنظر لنفسها كوحدة واحدة، ولأنّ طبيعة الصّراع هو معركة، فالقائد هو الذي استطاع أن يحقّق هذه المكاسب، أو أن يستفيد من الظّرف الذي وقع له، وعلى الآخر إن كان قديماً في وجوده أن يلتحق بهذا الأمل الجديد، وأن يسانده، بل إذا امتدّ الأمر وأخذ بعده المطلوب وجب عليه أن يكون جنديّاً لهذا القائد الجديد، وعليه أن لا يأتي ليقول للنّاس: أنا الأوّل، أنا السّابق، فالمسألة ليست للسّابق بمقدار حصول الفضل الإلهيّ لأحدٍ حصل له مقدّمات مساعدة لم تحصل لغيره.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ الحركات الجهاديّة كما أنّها هي المتقدّمة عن غيرها في فهمها لدين الله تعالى، وهي الأمل إن شاء الله تعالى، إلاّ أنّ سنّة الله تعالى لا تحابي أحداً، فحيث حصل الإيمان حصل النّصر، وحيث تخلّف الإيمان الواجب فليس لأحدٍ أن يلوم إلاّ نفسه.